إن شاءت أبقتهم ملائكة أو شوّهتهم

فضائيات الأطفال.. قنابل وورود في يد بيضاء

الدهشة الكاملة.. الفرح النقي.. رعشة سبر الأغوار..
كلّها تستعمر روح الطفل، وعيناه مسمّرتان على شاشة التلفاز، تطاردان مع "توم" المصرّ ببؤس، ذلك الـ"جيري" الصغير اللئيم.
"تصدير لثقافة المطاردة والسعي الدائب والتهالك على اقتناص فريسة ما في مكان ما.. محاولة لأمركة الإنسان في سن مبكرة جدا". هذا ما يراه عبد الوهاب المسيري في كتابه فقه التحيز، حين يمثل بالكارتون الشهير "توم و جيري" على الاستحواذ القيمي الغربي.

□ بغداد / نوري صباح

المطاردة ميزة طاغية

بيد أن بثينة جلال الدين ،وهي متخصصة في علم نفس الطفل لا يبدو أنها تتفق قليلا أو كثيرا مع الدكتور المسيري حين تعلق على رأيه السالف، قائلة كمن يصد عن نفسه هجوما مباشرا "بالتأكيد ليس من قبيل الصدفة أو اللاقصدية أن تكون المطاردة ميزة طاغية في معظم الأعمال الكارتونية، لكن الهدف المنشود من وراء ذلك هو اكتشاف الأشياء على هامش المطاردة و لا يوجد أي خبث أيديولوجي في المسألة".

تتباين آراء أرباب الأسر و تتقاطع حول موضوعة الأطفال و التلفزيون وفقا للنسق الفكري و العقدي الذي ينطلق منه الوالدان. و تلعب ثقافة الأسرة و التحصيل العلمي للأبوين دورا حاسما في تحديد الفضائيات التي يسمح للأطفال في البيت بمتابعتها،على أننا لا نعدم أسرا تلقي بالحبل على الغارب فلا تأبه و لا يهمها ما يشاهده أطفالها على الشاشة، فالريموت بيد الطفل يجوب به السموات المفتوحة كما يحلو له، فيمتلئ ذهنه المستعد والمتحفز، أساساً، صوراً و أفكاراً من هنا وهناك، غثاً وسميناً دونما رقابة او إشراف من أحد.

اختلاف الآراء

كميلة إسماعيل، سيدة في منتصف العمر تبدو على ملامحها صرامة أم متحكمة، تحدد لأطفالها القنوات و البرامج التي يمكنهم مشاهدتها "لا أدع لهم أي خيار في ذلك، إنهم صغار و لا يعرفون ما ينفعهم أو يضرهم"، مضيفة أنها تسمح لهم بـ"مشاهدة بعض البرامج على سبيس تون و المرسم الصغير على العراقية، لكنهم مؤخرا بدؤوا يميلون كثيرا إلى قناة طه حتى أضحت قناتهم المفضلة وهذا مفرح فـ(طه)مفيدة جدا" حسب رأيها.

بينما يعتبر عدنان الكعبي، أب لطفلين أكبرهما في العاشرة، أن ذلك "خنق لحرية الأطفال" ويواصل حديثه " لا أفرض عليهما أي قناة ولا أعترض على ما يشاهدانه أبدا، لكنني ألمح أنهما شديدا الولع بـ (mbc٣)" ويستذكر الكعبي طفولته بحزن "كان أبي يتعامل معي كما لو كنت دمية يسيّرني حيث يشاء ويفرض علي كل شيء، لا أريدهما أن يمرّا بالمأساة نفسها" هكذا يختتم قوله.

المشاهدة والنمو البدني

وعن التأثيرات السلبية للمشاهدة الكثيرة للتلفاز على صحة الأطفال ونموهم يرى الدكتور فرحان الفرطوسي، وكانت عيادته في المساء مكتظة بالأطفال المرضى من مختلف الأعمار أن "نمو دماغ الطفل يتأثر تأثرا مباشرا بمشاهدة التلفاز".

ويضيف بلغة احترافية ولهجة محذرة تنسجم مع طبيب في عقده الخامس أن "من جملة تلك الآثار السلبية: أولا تخفيف حفز نصف الدماغ الأيسر المسؤول عن نظام اللغة و القراءة و التفكير التحليلي، ثانيا تقليل الأهلية الذهنية وقوة الانتباه عبر خفض مستوى التواصل بين نصفي الدماغ، وثالثا إعاقة نمو النظام الضابط للانتباه والتنظيم والدوافع السلوكية". ويتابع الفرطوسي "وفي ما يتعلق بالنمو الجسدي فإن الأطفال الذين يشاهدون التلفاز ويتصفحون الانترنت أكثر من نظرائهم يميلون عادة إلى البدانة وقلة الحركة، ما يؤكد فرضية وجود علاقة عكسية بين زمن المشاهدة والنمو البدني المتوازن للطفل".

البدين والعصبي

وكشفت دراسة معمقة أجريت في مستشفى الأطفال والمركز الطبي الإقليمي في مدينة سياتل في الولايات المتحدة أن التلفاز قد يؤثر في نمو الدماغ عبر مستويات غير طبيعية من التحفيز، ما يعرضه لاضطراب في قدرته على التركيز وهو نمط دائم من التشتت الذهني وفرط النشاط الاندفاعي أو كليهما.

أم أيمن تعيش في حي شعبي مكتظ في بغداد - زواجان فاشلان وخمسة أولاد - ترى أن "الشارع ممتلئ بكل من هب ودب، بعض الأشرار يجندون الأطفال في عصابات للسرقة والبعض الآخر يستميلهم بالمال والهدايا ثم يستخدمهم في عمليات إرهابية وما إلى ذلك"، ثم تتساءل "أيهما أفضل جلوسهم أمام التلفزيون لساعات من المشاهدة البريئة وتحت نظري أم خروجهم إلى الشارع المفتوح على كل الاحتمالات الخطرة؟" وتفضل أم أيمن، التي لا يفارق الكتاب يدها برغم أنها لم تكمل دراستها،أن يصاب الأولاد "بالبدانة والتشتت الذهني - كما يقول الأطباء - على أن ينتموا إلى إحدى العصابات في حيّنا أو الأحياء المجاورة"، تقول ذلك وهي تضحك ساخرة من هذا التصور ومن فوبيا الشارع المبالغة التي تعيشها.

التقليد الأعمى للآخرين

وتؤكد الباحثة نسرين الخزرجي - ٤٠ عاما وأم لولدين وبنت- أن "الطفل المشاهد للتلفاز دون رقابة أو انتقائية يصبح اقل أحساسا بآلام الآخرين ومعاناتهم وأكثر رهبة وخشية من المجتمع المحيط به وأشد ميلا إلى ممارسة السلوك العدواني ويزيد استعداده لارتكاب التصرفات المؤذية".

مشددة على أن مشاهدة الأطفال لبرامج التلفزيون لفترات غير محددة وبلا رقيب "تفرز سلوكيات أبرزها السلبية والأنانية وعدم التعاون مع الآخرين وعدم الإحساس بمشاعرهم بل والسخرية منهم إلى جانب التقليد الأعمى للآخرين في الملبس والمأكل والمشرب والسلوك الاجتماعي وتطوير نمط حياة استهلاكي".

وأوضحت الخزرجي، التي يعوزها الدعم المادي لإنشاء مركز خاص ببحوث الأطفال حسب قولها، " أن معدلات الأيض (Metabolism) (تحويل الغذاء الواصل إلى الخلية إلى مركبات جديدة) تميل إلى الانخفاض أثناء مشاهدة التلفزيون حتى أكثر من المعدلات المنخفضة في أوقات الراحة، وهذا يعني أن الطفل يحرق سعرات حرارية أقل وهو يشاهد التلفزيون مما يحرقه مسترخياً من دون أن يفعل شيئاً".

مشاهدة الأطفال لبرامج التلفزيون لفترات غير محددة وبلا رقيب تفرز سلوكيات أبرزها السلبية والأنانية وعدم التعاون مع الآخرين

جهاز ذو حدين

كأي شيء آخر (ثنائي التأثير) فإن التلفزيون جهاز ذو حدين يؤثران على الأطفال بقوة متكافئة واحدة سلبا وإيجابا فبقدر ما يدفعهم نحو تبني قيم الجمال يدفع باتجاه آخر معاكس نحو تبني قيم الشر و البشاعة.

وقد أكدت الكثير من الدراسات العلمية أن مشاهدة التلفزيون لفترات محددة وبإشراف احد البالغين في الأسرة تنمي خيال الطفل وتساعده على اكتشاف عوالم جديدة لم تكن تخطر بباله، فإن بعض أفلام الرسوم المتحركة والبرامج المتخصصة توسع أفق الطفل من خلال تسليطها الضوء على بيئات جغرافية معينة تمكنه من فهم أشياء كثيرة عن التضاريس والتربة والعلاقات التي تربطها ببعضها من جهة وبالإنسان من جهة أخرى.

والبعض الآخر على سبيل المثال يسلط الضوء على قضايا علمية معقدة كعمل أجهزة جسم الإنسان المختلفة بأسلوب سهل جذاب يكسب الطفل معارف متقدمة في مرحلة مبكرة.

الغالبية العظمى من كارتون وبرامج الأطفال مؤدلجة بامتياز وبما أنها أنتجت في أميركا والغرب فهي تعكس تماما رؤيتهم الخاصة للآخر

تصحيح النطق وتقويم اللسان

بالإضافة إلى أن معظم البرامج تقدم للطفل بلغة عربية فصيحة لا يجدها في محيطه الأسري مما ييسر له تصحيح النطق وتقويم اللسان، وبما أن اللغة هي الأداة الأولى للنمو المعرفي فيمكن القول إن هذه البرامج - من هذا الجانب - تسهم بشكل كبير في نمو الطفل المعرفي.

من جانب آخر تلبي مشاهدة التلفزيون بعض احتياجات الطفل النفسية وتشبع له غرائز عديدة مثل غريزة حب الاستطلاع؛ فتجعله يستكشف كل يوم شيئا جديداً، كما تحفز لديه غريزة المنافسة والمسابقة ما يرسخ فيه الطموح للنجاح و الفوز.

سأسرق مسدس أبي

الطفل بهاء سالم -١٢ عاما- كان يتبضع في احد محال الألعاب في الكرادة برفقة أمه، معظم الألعاب التي قام بشرائها كانت عبارة عن مسدسات وبنادق بلاستيكية، يقول بفخر إن "أول شيء سأقتنيه عندما أكبر سيكون مسدساً حقيقياً" تفاجئه أمه بضربة على رأسه صارخة في وجهه "هذا ما جنيناه من متابعة قنوات الأكشن" يبتعد عنها محاولا إغاظتها "أعرف أين يخبئ أبي مسدسه سأسرقه الليلة وأهرب من البيت".

ربما كانت معدلات جرائم القتل أصدق مقياس للعنف في العالم، فعلى سبيل المثال تشير دراسة أجريت على أطفال المدارس في الولايات المتحدة إلى أن التعرض المتكرر لبرامج التلفزيون العنيفة يزيد من احتمال أن يسلك الأطفال سلوكا أكثر عدوانية، إلا أن التقاليد الثقافية القوية في اليابان مثلا المضادة لتعبيرات العدوان الخارجي قد تكبح بالفعل جماح العنف الذي يتم تعلمه من خلال وسائل الإعلام.

تركوا حقائب كتبهم لمتابعة الكارتون

اليونيسيف وأطفال العرب

وطبقا لتقرير صادر عن صندوق رعاية الطفولة التابع لهيئة الأمم المتحدة (اليونيسيف)، فإن العدد الإجمالي للأطفال في العالم العربي يصل إلى ١٠٥ ملايين طفل، أي ما يمثل ٣٨٪ من إجمالي السكان. كما يتمتع معظم هؤلاء الأطفال بفرصة مشاهدة التلفزيون بنسبة اكبر بكثير من فرصتهم في الحصول على تعليم جيد.

ويشير التقرير أيضا إلى أن ٨٠ مليون طفل هم دون سن العاشرة، وهذه أرقام تنذر بالخطر وتدعو إلى وضع ما تقدمه التلفزيونات العربية هذه الأيام تحت المجهر.

الحلقة بـ 100 ألف دولار

يعزو مختصون أسباب ضعف الإنتاج التلفزيوني العربي لبرامج الأطفال الى أسباب عديدة أهمها عدم امتلاك المؤسسة التلفزيونية العربية رؤية واضحة لأهداف برامج الأطفال ومعاييرها والنقص في المختصين في ثقافة الأطفال المقدمة عبر التلفاز وضعف خبرة المختصين
المتوفرين.

وطبقا لدراسة أجريت بهذا الصدد فإن التكاليف المالية الباهظة تشكل عائقا كبيرا أمام أنتاج برامج الأطفال مقارنة بمجمل الدخل المحلي في معظم أنحاء العالم العربي مما يجبر شركات الإنتاج العربية على اللجوء إلى الدبلجة.

ويشير مدير قناة "سبيس تون" فايز الصباغ في تصريح سابق إلى أن أنتاج برامج الأطفال في الدول العربية "ليس سهلا لقلة الطلب على هذه البرامج. فقد تصل تكلفة حلقة الرسوم المتحركة الواحدة مئة ألف دولار في حين يعاد بيع هذه الحلقة بنحو ستة آلاف دولار فقط".

الحد الأقصى للمشاهدة

وقد توصلت بحوث علمية حديثة إلى أن الحد الأقصى الذي ينصح به لمشاهدة التلفزيون يومياً بالنسبة لأعمار الأطفال كالآتي:

من سن ٢-٤ ٢٠ دقيقة
من سن ٣-٥ ٣٠ دقيقة
من سن ٦-٩ ٦٠ دقيقة
من سن ١٠-١٣ ٩٠ دقيقة

مع التنبيه إلى أن تجاوز هذه الفترات يتسبب في عدم توازن مشاعر الأطفال، وانخفاض مستواهم العلمي، وعجزهم عن إقامة علاقات إنسانية مع زملائهم، خصوصا الأطفال الذين تتجاوز مدة مشاهدتهم للتلفزيون ثلاث ساعات يوميا.

وينصح العلماء بعدم استخدام التلفزيون كأسلوب عقاب أو مكافأة فان من شأن ذلك أن يزيد من قيمته عند الأطفال ويعطيه أهمية تفوق قدره.

ليث جاسم في الخامس الابتدائي - يبدو أكبر من سنه بكثير- يعيش مع جده لأبيه منذ أن قتل والداه في سنوات الطائفية لا يسمح له الجد العجوز إلا بمشاهدة الفضائيات الدينية لكنه يقول بصوت خفيض "استغل فترة ذهابه إلى المسجد لأداء الصلوات وكذلك أوقات نومه لأشاهد قنواتي المفضلة" ويستمر ليث في اعترافاته " لا أحب برامج الصغار وهذا الكلام الفارغ، أتابع أبو ظبي دراما-وادي الذئاب - مراد علم دار الكبير".

تعريب البرامج فكرياً

يلفت خبراء عرب في حقول الطفولة إلى ضرورة "تعريب لغة وسلوكيات الإنتاج التلفزيوني الموجه للأطفال" داعين إلى "إنشاء مؤسسة عربية لإنتاج أفلام كارتون وبرامج تركز على أمجاد الأمة العربية ومستوحاة من بيئتها".

وبينما يؤكدون أن "خمسة بالمئة فقط من تلك البرامج منتجة محليا" يعترفون بأن صناعة التلفزة العربية تعاني "عدم النضج مقارنة مع نظيراتها في الغرب. فغالبية قنوات الأطفال المتلفزة العربية تقوم على تقليد الصيغ والأشكال التلفزيونية الغربية الموجودة أو تقوم بمجرد نسخ للأفلام التي تنتجها "هوليوود" و"ديزني". ما يؤدي الى ترويج أنماط سلوكية لا تنسجم مع قيم المجتمع العربي".

"باباي" علماني و"بلوتو" إرهابي

الأستاذة شيماء كريم، ماجستير في علوم الشريعة، لم تستطع أن تخفي حنقها وغضبها وهي تقول إن" الغالبية العظمى من كارتون وبرامج الأطفال مؤدلجة بامتياز وبما أنها أنتجت في أميركا والغرب فهي تعكس تماما رؤيتهم الخاصة للآخر والكون عموما" ثم تضيف في معرض تناولها بعض المواد الكارتونية بالتحليل "خذ إليك مثالا، باباي الشهير وسبانخه وعدوه اللدود بلوتو، في كل حلقة يقتتلان، ما سبب اقتتالهما؟ بلوتو يريد الظفر بزوجة باباي والأخير يدافع عن أسرته وحياته وينتصر في النهاية، فهذا هو باباي الطيب الحليق يرمز الى الغرب العلماني وذاك بلوتو الشرير الملتحي يرمز إلى الشرق الإرهابي".

وتلقي كريم بعض الضوء على ذائع الصيت (ميكي ماوس) قائلة إن "هذا الفأر الذي يعيش في الفضاء يمتلك قدرة وتأثيرا واضحين على البراكين والأمطار فبإمكانه إن شاء أن يوقف البركان أو ينزل المطر أو يقول للرياح اسكني فتسكن. لماذا يجعل هذا الفأر في السماء ولماذا يصور على أن له قوة في التحكم بالظواهر الأرضية؟ هل هناك تلميح أكثر خبثا وشيطانية من هذا؟".

أصدقاء المدى

فرح إبراهيم -١٠ أعوام- : "براعم" هي قناتي المفضلة للأسف لا استطيع أن أشاهدها متى ما أريد ،لدينا تلفزيون واحد وأخي وائل يفضل الجزيرة للأطفال"نتعارك" على الريموت دائما.

صفاء خالد -١٢ عاما-: بيتنا قديم فيه عناكب كثيرة مرة تركت احدها يلسعني ثم رميت نفسي من درج الدار لكن قدمي انكسرت فعرفت أنني لم أتحول إلى "سبايدر مان" ربما احتاج إلى لسعات أكثر.

ميثم طارق – راسب في السادس الابتدائي-: لا وقت لدي لمتابعة التلفزيون منذ بداية العطلة الصيفية وأنا أبيع المياه المعدنية في هذا الشارع لأطعم أمي وأخواتي ووالدي الذي فقد بصره في احد الانفجارات.

نسرين سليم في ربيعها الثالث تدلي لـ"المدى" بتصريح خطر: أحب "تيور الدّنه" ويقوم أخوها الكبير بالترجمة: تعني طيور الجنة.

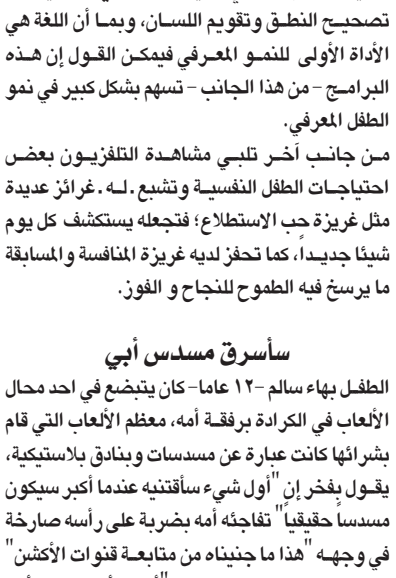

متابعة جماعية وفردية